

المبحث الثالث

كلام العرب

أولاً الشعر

يحتل الشعر منزلة عظيمة في نفوس العرب في الجاهلية والإسلام على حد سواء، فهو سجل حافل لمفاخرهم ومقترهم، فقد أثر عن ابن عباس رضي الله عنه (ت ٦٨هـ) قوله: ((إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب))^(١)، وقد بدأت عناية العلماء بالنصوص الشعرية لأهميتها في تفسير الفاظ القرآن الكريم ((ثم توسع الأمر فيما بعد، وتشعب وأصبح الشعر مادة للاستشهاد في مجال الدراسات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية))^(٢)،

وحاول أحد الباحثين تحليل هذه العناية بشواهد الشعر قائلًا: ((وركونهم إلى الشعر في حقيقته بحث عن لغة مثالية منتقاة يطمنون إلى دراستها، والشعر من بين مستويات اللغة يتميز بآله مما يتناقله الرواة من عصر لعصر، لسهولة حفظه، وشدة تأثيره وهو بذلك صورة للغة أقرب ما تكون إلى السلامة والنقاء، وأقرب ما تكون إلى صحة النطق الذي تناقله الرواة من زمن سابق حتى وصل إلى النحاة))^(٣).

وقد استشهد شراح سقط الزند بالشعر على ظواهر دلالية كثيرة، وقد وردت في شروحهم نماذج للعديد من الشعراء وهم:

١- الطبقة الأولى شعراء العصر الجاهلي ومن الذين احتج بشعرهم: امرؤ القيس، والاعشى، وطرفة بن العبد، وعنترة بن شداد، والنايعة الضبياني.

(١) الحمدة، ابن رشيق القيرواني: ١٦/١.

(٢) شواهد الشعر في كتاب سيبويه: ٢٧٠.

(٣) الاستشهاد والاحتجاج باللغة: د. محمد عبد: ١٩٠ - ١٩١.

١- فمن ذلك ما ورد في تفسير الشراح للفظ (الْجَمُوح) الواردة في ديوان أبي العلاء:
لَقَدْ أُنْ يُثْنَى الْجَمُوحُ لِحَامٍ وَأَنْ يَمْلِكُ الصَّعْبُ الْأَبَى ذِمَامًا^(١)

يقول التبريزي ((الْجَمُوحُ، من جَمَحَ الفرس، اذا غلبَ فارسُهُ على رأسِهِ، و (يَجْمَحُونَ) في القرآن، فَسَرَوْهُ يُنْزَعُونَ. وهو راجع الى المعنى الاول)^(٢).
اما البطليوسي، فيقول: ((وَالْجَمُوحُ من الخيل الذي لا يَقْدِرُ على منعه من الذَّهَابِ. يقول: هذه الوقعة التي كانت على الروم ما يكفَ جماحهم، ويردُّ طماحهم))^(٣).
اما الخوارزمي، فيقول في تفسير معنى هذه اللفظة: ((الْجَمُوحُ من الافراس له سغديان، احدهما ذم، والاخر مدح. اما الذم فهو أن يركب رأسه لا يثنيه شيء، وهذا كثير. واما المدح فكقول امرئ القيس:
جَمُوحًا قَرُوحًا وإِحْضَارُهُ اِكْمَعَمَعَةً السَّعْبِ الموقد^(٤)

والمراد فيما بصدده الذم))^(٥).

وفي معاجم اللغة العربية نجد ان اصحابها لا يختلفون في دلالة هذه اللفظة عن الشراح فهذا الجوهرى يقول ((الْجَمُوحُ من جَمَحَ الفرس جَمُوحًا اذا اعْتَزَّ فارسُهُ وغلب فهو فرسٌ جَمُوحٌ، وَجَمَحَتِ المرأةُ من زوجها، وهو خروجها من بيتِهِ الى أهلها قبل أن يُطْلَقَهَا، وَالْجَمُوحُ من الرِّجَالِ الذي يَرْكَبُ هواهُ فلا يُمكنُ رَدُّهُ، وَجَمَحَ أي أسرع))^(٦).

(١) شروح سقط الزند: ٦٠٢/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٦٠٢ / ٢.

(٣) المصدر نفسه: ٦٠٢/٢.

(٤) ديوان امرئ القيس: ١٨٧.

(٥) شروح سقط الزند: ٦٠٢/٢.

(٦) الصحاح: ٣٦٠/١، مادة: (جمح).

2- ومن ذلك أيضاً الاستشهاد بشعر الاعشى في تفسيرهم للفظه (البياض) الواردة في قول ابي العلاء
وتَحَسُّدُكِ الْبَيْضُ الْحَوَالِي قِلَادَةً بِجَيْدِكَ فِيهَا مِنْ شَذَا الْعَيْسِكِ تَعْمَالٌ^(١)

يقول البطلينيوسي: ((اراد بـ (بالبييض) هاهنا النساء، ولم يُرد بَيَاضَ اللون؛ لأنه لا معنى لتخصيصه يقول البييض من النساء هاهنا دون المذكر. والعرب تسمعون البييض على معان كثيرة، فتارة يستعملونه بمعنى اللون الذي هو ضد السواد، وتارة يريدون به الحسن والجمال. ولذلك قالوا لفلان يَدُّ بَيْضَاءَ عَدِيٍّ. وتارة يريدون بالبييض الطهارة، والنقاء من الأناس والعيوب، وتارة يريدون به طلاقة الوجه وبشره. ويسمّون العبوس سَوَادًا، قال الله تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٢)، وتارة يريدون بالبييض السخبة وبالسواد العداوة، فيقولون: فلان أبيض الكبد، اذا كان حُبًّا، وأسود الكبد اذا كان عَدُوًّا، يريدون أن العداوة أحرقت كبده. قال الاعشى:
فَمَا أَجْشَمَتْ مِنْ إِيَّانِ قَوْمٍ هُمُ الْأَعْدَاءُ وَالْأَكْبَادُ سَوْدًا^(٣)

ويقول ابن منظور: ((البياض ضد السواد، يكون ذلك في الحيوان والنبات وغير ذلك مما يقبله غيره. والبياض اللون الأبيض، وقد قالوا بياض وبياضة كما قالوا: منزلة ومنزلة، وأباض الكلب أبيض ويابس وبليضي فلان قبضته من البياض كنت أشد منه بياضاً، والبيضان من الناس خلاف السودان))^(٤).
وجاء في تفسير الآية التي ذكرتها وهي قوله تعالى ((ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)) يقول الألوسي ((أي صار من الكلبة والحياء من الناس وأصل معني ظل أقام نهراً على الصفة التي تستند الى الاسم ولما كان التبشير قد يكون في الليل وقد يكون في النهار، وأسوداد الوجه كناية عن العبوس والغم والفكرة والنفرة التي لحقته بولادة الأنثى، قيل اذا قوى الفرج انيسطروح القلب من داخله ووصل إلى الأطراف لاسيما إلى الوجه لما بين القلب والدماع من التعلق الشديد، فيرى الوجه مشرقاً متلألئاً، ومن لوازم الفرج استنارة وإشراقه، ومن لوازم الغم والحزن إرباداه وأسوداده فلذلك كنى عن الفرج بالاستنارة وعن الغم بالاسوداد))^(٥).

(١) شروح سقط الزند: ١٢٤٢/٣.

(٢) سورة النحل: الآية ٥٨، والزخرف: الآية ١٧.

(٣) ديوانه: ٦٤.

(٤) لسان العرب: ١٢٨/٧ - ١٢٩، مادة (بيض).

(٥) روح المعاني: ١٦٨/٧ - ١٦٩.

وهناك آيات في كتاب الله عز وجل ذكر الله فيها وجوه الفريقين، حيث يقول تعالى: ﴿يَوْمَ بَيَضَ وَجْهُهُ وَسُودَ وَجْهُهُ﴾^(١)، ﴿وَجْهُهُ يَوْمَ يُدْفَعُ مَسْفَرُهُ﴾^(٢) صَاحِكُهُ مُسْتَبِيرُهُ^(٣) وَوَجْهُهُ يَوْمَ يُدْفَعُ عَلَيْهَا عِبْرُهُ^(٤) تَرَعَفَهَا قَتَرُهُ^(٥) و﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾^(٦) وَوَجْهُهُ يَوْمَ يُدْفَعُ بِكَبِيرُهُ^(٧) ومن ذلك ما ورد في تفسير الشراح للفظ (الرَّحَضُ) الواردة في ديوان أبي العلاء وَقَالَ لَهُ الرُّمَاءُ بِأَرْجُوا نَوْغًا تَسْبِيحُهُ رَحَضًا غَمِيلاً يفسر لنا التبريزي هذه اللفظة فيقول: ((وَالرَّحَضُ الْخَلْقُ. وَالرَّحَضُ: الْعَسَلُ؛ رَحَضَهُ يَرْحَضُهُ وَيَرْحَضُهُ رَحَضًا، إِذَا غَسَلَهُ))^(٨).
أما البطليوسي فيقول: ((وَالرَّحَضُ وَالرَّحِيضُ: الثَّوْبُ الَّذِي أَكْثَرَ مِنْ غَسْلِهِ، حَتَّى يَكَادَ يُخْلَقُ. وَالرَّحَضُ فِي الْأَصْلِ: مُصَدَّرٌ وَصَفَ بِهِ))^(٩).

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٠٦.

(٢) سورة عبس: الآية ٤٠.

(٣) شروح سقط الزند: ١٣٨٥/٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٣٨٦/٣.

قال طرفة.

كَانَ مُجَاعَ السَّنْبِلِ الْوَرَثَ فِيهِمَا إِذَاعَتْ بِهِ الْأَرْوَاحُ فِي وَرَقِ الْحَمَضِ

لَاكْرَمُ نَفْسِي أَنْ أَرَى مُتَخَشِّعًا لِذِي مَنَّةٍ يَعْطِي الْقَلِيلَ عَلَى الرَّحَضِ. (١)

وفي المعاجم العربية لم يختلف تفسير هذه اللفظة فيها عن هذا المعنى فابن منظور يقول ((الرَّحَضُ: الغسلُ رَحَضَ يَذُءُ والإِنَاءُ والثوبُ وغيرُها يَرَحَضُها رَحَضًا. غَسَلُها، والرَّحاضَةُ الغَسَالَةُ، وثوبٌ رَحِيضٌ وَمَرَحُوضٌ: أي مَغْسُولٌ، والرَّحِيضُ: المَغْسُولُ، فعِلٌّ بمعنى مفعول، والمرحضة: الأَجَانَةُ؛ لأنه يُغْسَلُ فيها الثَّيابُ. ورَحَضَ الرَّجُلُ رَحَضًا عَرَقَ حَتَّى كَانَهُ غَسَلٌ جَسَدُهُ)) (٢)

ومن ذلك ما ورد في تفسير الشراح للفتحة (تسليّن) الواردة في ديوان أبي العلاء: فسلّبن واسلّعن جميعاً من قميص الدجى ثياب حداد

يقول التبريزي ((يُقال: تسلّبت النائحة أو الشاكِلُ، إذا نزعَت ثيابَها ولبست ثياباً سوداً. ويقال إنَّ السَّلابَ ثوبٌ من جلود، والسُّلْبُ: جمع سِلاب. والمعنى أنه أمرٌهُنَّ بأنَّ يلبسن لباسَ الحُزنِ، ويَضَعْنَ الاطِّواقَ عن اعناقهنَّ، وهُنَّ لا يصلنَّ إلى ذلك)) (٣). أما البطليوسي فيعطي معنيين لهذه اللفظة فيقول ((يجوز أن يريد بقوله ((سلّبن)) تجردن من ملبسكن الذي تلبسنه، ويجوز أن يريد التسلّب السَّلاب وهو ملبس أسود يلبس عند الحُزن، يُقال: سلّبت المرأة على زوجها وتسلّبت (٤)؛ قال عنتره:

وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَقُمْ قَرَانِي عَمْرٍ وَسَطَ نَوْحٍ مُسَلَّبٍ

وجاء في شرح هذا البيت، أن النّوّح: النساءُ النّائحاتُ، يقال نساء النّوّح بالفتح وأنّواح ونوّح بالضم، ونائحات. ويقال سلّبت المرأة بالتضعيف وهي مُسلّبة، إذا كانت مُحَدًّا تلبس الثَّيابَ السُّودَ للحداد. (٥)

(١) الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد: تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته، د. علي الجندي، دار الفكر العربي ٢٠٠ (ومعنى الرحض السزادة الخلق، والرحضاء الحرق أثر الحمى أو عرق يغسل).

(٢) لسان العرب: ٥٤/٧، مادة: (رحض).

(٣) شروح سقط الزند: ٩٨٣/٣.

(٤) المصدر نفسه: ٩٨٤/٣.

(٥) ينظر: شرح ديوان عنتره: ص ١٧.

وجاء في معنى هذه اللفظة يقال سَلَبْتُهُ ثَوْبَهُ سَلْبًا، والسَّلْبُ: الْمَسْلُوبُ، والسَّلُوبُ: من الثَّوْبِ التي يُسَلَّبُ ولذها والجَمْعُ مَسْلَبٌ، وأَمَلَيْتُ النَّاظَةَ إذا كانت تلك حالها. ومن الِهابِ تَسَلَّبَتِ الْمَرْأَةُ مِثْلَ أَحَدَتٍ. قال قومٌ: هذا من السَّلْبِ وهي الثَّيَابُ السُّودُ، وقال بعضهم: أنَّ الفرقَ بين الإِحدَادِ والسَّلْبِ أنَّ الإِحدَادَ على الرَّوْجِ، والتَّسَلُّبَ قد يكونُ على غير الرَّوْجِ^(١). أما أحمد بن فارس فيذكر معنى آخر لهذه اللفظة فيقول: ((سَلَبَ أي إذا ولدت الناقة مَيْتًا فَقَدْ اسَلَبَتْ))^(٢).

الطبقة الثانية: الشعراءُ الْمُخَضَّرُمُونَ، الذين أُحْتِجَ بشعرهم، أمثال: حسان بن ثابت، وعمر بن سعد يكرِب، وأبي ذؤيب الهذلي. وقد تناولت في دراستي شعر حسان بن ثابت، وأبي ذؤيب فقط.

١ - لقد احتج شراح سقط الزند بشعر حسان بن ثابت، وذلك في بيان معنى لفظه (مَعَانٍ) الواردة في قول أبي العلاء:

مَعَانٍ مِنْ أَحَبَّتْنَا مَعَانٍ حَيْبُ الصَّاهِلَاتِ بِهِ الْفَيَّانُ^(٣)

يقول التبريري في معنى اللفظة: ((المَعَانِ: الْمَنْزِلُ. وَحُكِيَ عن العرب الكوفة مَعَانٍ مَذًا، أي مَنْزِلُ. مَعَانٍ في أول البيت موضع بعينه وفي بيت حسان لِمَنْ الدَّارُ أَفْقَرَتْ بِمَعَانٍ^(٤))).

والقياسُ جمع قَيْنَةٍ، لأنهم كانوا يكرمون الحرَّةَ عن ذلك، فلا يُغْذَى إِلَّا الْأَمَةُ. والمعنى أنَّ هذا المنزل الذي يُقَالُ مَعَانٍ، أَحَبَّتْنَا فيه نازِلون، وهم ملوكٌ لهم خيلٌ وقِيَانٌ، فخيْلُهُمْ تَصْهَلُ وقِيَانُهُمْ تَغْنِي في هذا المنزل))^(٥).

أما البطليوسي فيقول: ((المَعَانِ: الْمَكَانُ الْمَعْمُورُ، واشتقاقه من الْمُعَانِيَةِ. يُرَادُ أَنَّ النَّاسَ يَكْتَرُونَ فيه فِعْلَيْنِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. ولهذا قال بعض اللغويين في تفسيره: هو الْمَكَانُ الْكَثِيرُ الْخَلْقِ. ومجازة في العربية أنه مَفْعَلٌ من غَانَهُ يَغْنِيهِ، إذا نظر إليه؛ لِأَنَّ مَفْعَلًا لَا يَشْتَقُّ إِلَّا مِنَ الْفِعْلِ الثَّلَاثِيِّ. وَمَعَانٍ الْأَوَّلُ اسمُ موضعٍ يَغْنِيهِ. يقول هذا الموضع معمورٌ بِأَحَبَّتْنَا)) وبهذا المعنى فسره الخوارزمي^(٦).

٢ - ومن ذلك ما جاء في دلالة لفظه (النَّضِيرُ) الواردة في قول أبي العلاء: وَتَمَتَّعَ بِنَّضِيرَةِ الْعَيْشِ إِذْ جَا عَثَكَ فِي رَوْثِ الزَّمانِ النَّضِيرِ

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٩٢/٣ - ٩٣، وتاج العروم: ٧٢/٣.

(٢) كتاب الفرق: ابن فارس: ٧٩.

(٣) شروح سقط الزند: ١٧٢/١.

(٤) تماشه: بين أعلى اليرموك فالجبان. ديوان حسان بن ثابت: ٢٥٣.

(٥) شروح سقط الزند: ١٧٢/١.

(٦) المصدر نفسه: ١٧٢/١ - ١٧٣.

يقول التبريزي في معنى هذا البيت ((معناه أنه عقد هذا التزويج في الربيع، وهو نصير مستحسن يفضل غيره من الازمنة، لما فيه من النضرة وحسن الإزهار. والنضر يوصف به ما اخضر من النبات وغيره. وكثر ذلك حتى قالوا لكل شيء حسن. نضر. وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ هَمَمْنَا نَضْرَةً وَمَرْوَةً﴾^(١). وقالوا للذهب نضار. ومن ذلك وصفوا الخُلج^(٢) بالنضار؛ لأنه أحسن من غيره، كأنهم شبهوه بالذهب لصفرته. قال أبو ذؤيب:

وسور من الصيذان فيها مذانبٌ نضارٌ إذا لم نستنفدْها نعارها^(٣)

أما الخوارزمي فإنه لم يخرج عما جاء به التبريزي^(٤). ويقول ابن منظور: ((النظرة: النعمة والعيش والغنى، وقيل: الحسن والروث، وقد نظر الشجر والورق والوجه واللون ونظر الله وجهه ينظره نظرة أي حسن قال تعالى: ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةً﴾^(٥) إلى ربها ناطرة^(٦))). وقد أنظر الشجر إذا اخضر ورقه^(٧).

٣- الطبقة الثالثة: الشعراء الاسلاميون واشتملت هذه الطبقة على الفرزدق، وذو الرمة.

١- احتج شراح سقط الرند بشعر الفرزدق عند ذكره للفظه (الحجال) الواردة في ديوان أبي العلاء:

حكّت روثق البَيْض الحسان وفعلها وليس لها إلا الغمودُ جِجال^(٨)

يقول التبريزي في تفسير هذا البيت: ((أي هذه السيوف في الوانها تحكى البيض الحسان من الإنس في فعلها افعالهن، أي يقتلن؛ لأن الشعراء يدعون أن الحب ربما قتل. والحجال: جمع حجلة، وهو بيت صغير تتخذ المرأة في البيت الكبير)) قال الفرزدق:

إذا القنبضات السود طوقن بالضحى رقدن عليهن الحجال المسجف^(٩)

أما البطليوسي، فيقول: ((والحجال الشئور، واحدها حجلة))^(١٠).

(١) سورة الدهر: الآية ١١.

(٢) الخُلج: شجر تتخذ من خشبه الاواني، فارمن سعرب.

(٣) ديوان الهذليين: ٢٧.

(٤) شروح سقط الزند: ٢٢٦/١.

(٥) سورة القيامة: الآية ٢٢ - ٢٣.

(٦) لسان العرب: ٢١٤/٥.

(٧) شروح سقط الزند: ١٠٥٢/٣.

(٨) البيت في ديوانه: ٣٨٤.

ولم يخرج ابن منظور في تفسير هذه اللفظة عن تفسير شراح سقط الزند، يقول ((الحَجَلُ القَبْجُ، والحَجَلَةُ مثل القُبَّة، وحَجَلَةُ العروس معروفَةٌ، هي بيتُ يَزِينُ بالثياب والأُميرةُ والسُّثور، والجمْعُ حَجَلٌ وحَجَالٌ. وحَجَلُ العروس: اتخذَ لها حَجَلَةً، وحَجَلٌ يَحْجُلُ حَجَلًا إذا مشى في القيد))^(١).

٢- ومن ذلك ما ورد في تفسير الشراح للفتحة (الخَبِيب) الواردة في ديوان أبي العلاء: **كَأَنَّ الصَّبَا أَلْقَتْ إِلَيَّ عَنَائَهَا تَخْبُ بِسَرَجِي مَرَّةً وَتُنَاقِلُ^(٢)**

يقول التبريزي ((الخَبِيبُ: ضَرْبٌ مِنَ السَّيْرِ، وَالتَّنَاقُلُ أَيْضًا: ضَرْبٌ مِنْهُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ ذِي الرِّمَّةِ:

فَرَّاحٌ مُنْصَلِّئًا يَحْدُو حَلَائِلَهُ أَدْنَى تَقَافِيهِ التَّقْرِيبُ وَالْخَبِيبُ

يصف حمار وحش وأتله))^(٣).

وقيل: الخَبِيبُ: هُوَ الرَّمْلُ، وَقِيلَ أَنَّ يَذْقُلُ الْفَرَسُ أَيَّامَهُ جَمِيعًا، وَأَيَّاسَرُهُ جَمِيعًا، وَقِيلَ: هُوَ أَنَّ يَزَاوَحَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَرِجَالِهِ، وَكَذَلِكَ الْبَعِيرُ، وَقِيلَ السَّرْعَةُ، وَكَانَتْ الدَّائِلَةُ تَخْبُ بِالضَّمِّ، خَبًا وَخَبِيئًا وَخَبِيئًا، وَالْخَبُ: الْفَسَادُ، وَالْخَبُ: هَيْجَانُ الْبَحْرِ وَاضْطِرَابُهُ؛ يُقَالُ أَصْلَبَهُمْ خَبٌ إِذَا هَاجَ بِهِمُ الْبَحْرُ. وَحَبُّ النَّبَاتِ: ارْتَفَعَ وَطَالَ^(٤).

٤. الطبقة الرابعة: الشعراء المولدون: إن الاحتجاج بشعراء هذه الطبقة تضمن شاعرين كبيرين هما أبو الطيب المتنبي، وأبو العتاهية:

١- ومن ذلك الاحتجاج بشعر أبي الطيب لبيان معنى لفظة (الإبتهال) الواردة في

ديوان أبي العلاء:

يَبْتَئْتُ مُسْتَهْذًا وَاللَّيْلُ يَدْعُو بِضَوْءِ الصَّبْحِ خَالِقَهُ ابْتِهَالًا

يقول التبريزي: ((فالليل يدعو الله لفرج عنه بالصباح. وهذا من دعاوى الشعراء. والإبتهال: الإجتهد في الدعاء وغيره. والمراد أن الليل قد أدركه القرع فهو يدعو الله سبحانه بالصبح ليخلص مما هو فيه، وهذه دعاوى الشعراء، يبالغون في الأشياء حتى يخرج الكلام إلى المحال. فهو يبتهل إلى الله سبحانه من القرع بالصباح ليفرج عنه))^(٥). أما البطليوسي فيشير أيضاً إلى أن الإبتهال ((الاجتهاد في الدعاء، وهذا معنى ولده قول أبي الطيب:

(١) شروح سقط الزند: ١٠٥٢/٣ - ١٠٥٣.

(٢) لسان العرب: ١٤٦/١١.

(٣) شروح سقط الزند: ٥٤٠/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٤٥٠/٢، والبيت في ديوانه: ص ١٤.

(٥) ينظر: لسان العرب: مادة: (خَبِبَ)، ٣٤٣/١.

(٦) شروح سقط الزند: ٦٩/١.

أَعَزَمِي طَالَ هَذَا اللَّيْلُ فَاَنْظُرْ أَمِنْكَ الصَّبِيحُ يَفْرُقُ أَنْ يَثُوبَا (١)

وأبو الطيب أول من أثار هذا المعنى، فآخذه أبو العلاء وخالف به ما ذهب إليه أبو الطيب؛ لأن أبا الطيب ذكر أنه بات عازماً على أمر ينويه، وحدث يريد أن يؤقعه باعاديته، فكان الصبح يخاف من عزمته ويتوقع أن يناله شر من طويته، فلذلك يتأخر عن الإقبال على عاداته. وذكر أبو العلاء أن الليل يخاف أن يناله شر من عزيمة الممدوح التي يسهر من أجلها. فهو أن يجيء الصبح ليخلص من شرها (٢).

أما الخوارزمي فيقول: ((يُقَالُ: دَعَا اللَّهَ بِالْعَافِيَةِ، وَدَعَا اللَّهَ بِالْمَغْفِرَةِ. يَقُولُ: يَبِيدُ يَقْظَانُ لِيَكْفِيَ الْمُسْلِمِينَ مَا يَهْمُهُمْ مِنَ الذَّبِّ عَنْ حُوزَتِهِمْ، وَالْمَحَامَاةِ دُونَ بَيْضَتِهِمْ، وَذَلِكَ فِي لَيْلٍ قَدْ تَكَثَّرَتْ فِيهِ الْأَهْوَالُ حَتَّى هَابَ اللَّيْلُ، فَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعِيدَ عَلَيْهِ الصَّبْحَ لِيَنْجُوَ مِمَّا فِيهِ مِنَ الْمَخَافِ)) (٣).

ومعنى الابتهاال في كتب اللغة لا يخرج عن معنى الدعاء، فلما المبتهلين يدعو كل واحد منهما على صاحبه (٤).

٣- ومن ذلك احتجاج شراح سقط الزند بشعر أبي العتاهية في تفسير لفظة (الصَّمْتُ) الواردة في ديوان أبي العلاء:

إِنَّ الصُّرُوفَ كَمَا عَلِمْتَ صَوَامِتَ عَا وَكُلَّ عِبَارَةٍ فِي صَمَّتِهَا.

يقول التبريزي: ((الصَّمْتُ: الْأَسْكُوتُ)) (٥)، أما البطليوسي فيقول: ((يُقَالُ: صَمَّتْ وَصُمْتُ، بِالْفَتْحِ وَالظَّمِّ؛ الصَّمْتُ بِالْفَتْحِ الْمَصْدَرُ، وَالصُّمْتُ بِالظَّمِّ الْأَسْمُ)) (٦) وهذا نحو قول أبي العتاهية:

وَعَظَمْتُكَ أَحْدَاثٌ صُمَّتْ وَتَعَتُّكَ أَرْمُئَةٌ حُفَّتْ

وَأَرْتُكَ قَبْرُكَ فِي الْحَيَاةِ وَأَنْتَ حَيٌّ لَمْ تَمُتْ (٧)

أما الخوارزمي فيشير إلى أن هذا كبيت السقط.

(١) في شرح ديوان أبي الطيب: يفرق، يخاف، يثوب؛ يرجع. يقول: مخاطباً - عزمه؛ انظر يا عزمي هل علم الصبح بما أنا عازم عليه من الاقتحام فتأخر خشية أن يصاب في جملة أعدائي: ٢٦٦/١.

(٢) شروح سقط الزند: ٦٩/١.

(٣) المصدر السابق: ٦٩/١.

(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٣١١/١.

(٥) شروح سقط الزند: ١٠٣٢/٣.

(٦) المصدر نفسه: ١٠٣٢ / ٣.

(٧) ديوان أبي العتاهية: ٦٢.

وقد تنطق الأشياء وهي صوامت وما كل نطق المخبرين كلاماً^(١)

وعلى هذا البيت تعليق من قبل الشراح فالتبريزي لم يذكر شيئاً عن هذا البيت، أما البطليوسي فيقول ((وقد تنطق الأشياء وهي صوامت)) يريد أن ما في الشيء من دلالة الإعتبار يجري مجرى الكلام والنطق، وإن لم يكن له صوت يُسمع، وهذا مذهب قد اتفق عليه الحكماء من العرب والعجم)) أما الخوارزمي فيقول ((قيل للنظام (ت ٢٣١) ما الأمور الصامتة الناطقة؟ فقال: الدلائل المخبرة، والعبر الواعظة))^(٢)

وكل هذه الاشارات حول دلالة الصوامت مقتبسة من قول الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) عنها في قوله ((ومتى دل الشيء على معنى فقد أُخبر عنه وإن كان صامتاً، وأشار إليه وإن كان ساكناً، وهذا القول شائع في جميع اللغات، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات))^(٣)

ومعنى لفظة (صمت) في كتب اللغة من ذلك صمت الرجل إذا سكت، وأصمت أيضاً ومنه قولهم ((لقيت فلاناً ببلدة أصمت)) وهي الفقر التي لا أحد بها، كأنها صامتة ليس بها ناطق.^(٤)

ثانياً الامثال

إن المنطلق الذي تنطلق منه الامثال العربية راجع الى التمكن من اللغة وكثرة الخبرة، فهي قصارى فصاحة العرب العراء ونوادر حكمها، وحوامع كلمها، وبيضة منطيقها، وبلاغتها التي اعربت بها عن القرائح السليمة، حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فاطالت المعنى^(٥). والذي يقرأ كتب اللغة يجد أن أصحابها يستشهدون بكثرة في الامثال العربية.

وتتوفر في الامثال مزية الایجاز والدقة في التشبيه وجودة الكناية وحسن الاستعارة وهذه كلها تؤدي الى إصابة المعنى وفهم المقصد.^(٦)

وكان استشهاد شراح سقط الزند بالامثال كثيراً جداً إذ استشهدوا بالمثل في سبعين موضعاً. وعند الإطلاع على ما أتبعه شراح سقط الزند عند ايرادهم المثل وجدت الآتي:

(١) البيت ١١ من القصيدة: ١٨، شروح سقط الزند: ٢ / ٦٠٧.

(٢) شروح سقط الزند: ٢ / ٦٠٧.

(٣) البيان والتبيين: ١ / ٨١ - ٨٢.

(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٣ / ٣٠٨.

(٥) ينظر: المستقصى: المقدمة (ب).

(٦) معجم الامثال: ٦ / ١.



١- لم ينسب الشراح المثلّ الى قائله بل اكتفوا بعبارة (قولهم او كما في المثل).

- ٢- يذكرون - أحياناً - مناسبة قول المثل كما فعلوا عند إيرادهم المثل (إذا قالت حذامُ فصَدَّقوها) ^(١) أو (ابخل من مادر) ^(٢) فنجدهم يروون قصة كلِّ مثلٍ.
- ٣- يشرحون - أحياناً - المعنى المقصود من المثل فعلى المثل (هل بالرمْل أو شال) ^(٣) تكلم الخوارزمي قاتلاً (يُضْرَبُ للبخل الذي لا خيرَ عنده، كما لا وشل بالرمْل) ^(٤).

وبعد نظر الباحث في الامثال الواردة في الشروح ارتأى أن يأخذ اللفظة الواردة في بيت أبي العلاء، ثم يطالع على كلام الشراح حول هذه اللفظة، وبعد بيان معاني هذه اللفظة في كتب المعاجم أيضاً يأخذ المثل الذي استشهد به الشراح على هذه اللفظة، ثم يقوم بالبحث عن هذا المثل في كتب الامثال لأجل بيان معناه والقصد من استعماله.

١- مثال ذلك لفظة (الأبلج) التي وردت في قول أبي العلاء:

أَبْلَجُ مِنْ بَعْضِ قَرَى ضَيْفِهِ الـ
يَأْمَنُ إِذَا لَمْ يَأْمَنِ الْمُحْرَمُ

يقول التبريزي ((الأبلج: الذي بين حاجبيه بلجة، أي بياض وافتراق؛ والمُحْرَمُ يأمن، وقد يَنفَقُ أن يخاف، وضيف هذا المذكور آمنٌ إذا خاف المُحْرَمُونَ في الحرم)) ^(٥) أما البطليوسي، فيقول ((الأبلج المشهور في الناس الذي لا يخفى مكانه، كالصباح الأبلج، ولذلك قيل في المثل: (الحقُّ أبلج، والباطل لجلج)) أي الحق واضح لا إشكال فيه ولا تردد، والباطل يتردد فيه صاحبه ويتحير، فلا يجد مخرجاً. والمُحْرَمُ الذي يلوي إلى حرم مكة؛ ليتعصم به. والمُحْرَمُ أيضاً الدَّاخلُ في الشهر الحرام)) ^(٦) أما الخوارزمي فيقول ((يقال للرجل الطلق الوجه ذي الكرم والمعروف هو أبلج، وإن كلن أقرن)) ^(٧).

وفي كتب المعاجم نجد أن الأبلج والبلجة هو التباعُد الذي يكون بين الحاجبين. ويقال للأنتى بلجاء، وقيل الأبلج الحسب الواسع، يكون في الطول والقصر. ^(٨) وقيل في معنى المثل الذي ذكره الشراح أن الحق واضح، لذلك يقال صبح أبلج أي مشرق، وفي صفة النبي (صلى الله عليه وسلم) ((أبلج الوجه)) أي مشرق. والباطل لجلج أي مُتَبَسِّس. ^(٩) وإلى هذا المعنى أشار الزمخشري. ^(١٠)

(١) شروح سقط الزند: ١٤٦٨/٤ - ١٤٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ٥٣٣/١.

(٣) المصدر نفسه: ١٨٢٤/٤.

(٤) المصدر نفسه: ١٨٢٤/٤.

(٥) شروح سقط الزند: ١٦٣/٢.

(٦) المصدر نفسه: ١٦٣/٢.

(٧) المصدر نفسه: ١٦٤/٢.

(٨) ينظر: اللسان: ٢١٦/٢، مادة: (بلج)، تاج العروس ٤٢٦/٥، مادة: (بلج).

(٩) ينظر: مجمع الأمثال: ١١٠٤/١.

٢- ومن ذلك لفظة (الأنوق) الواردة في قول أبي العلاء:

فَوَطَّنْ أَوْكَارَ الْأُنُوقِ وَرَوَّعْتَ مِنْهَا وَبَاتَ الْمُهْرُ ضَيْفَ الْهَيْئَمِ

قال التبريزي ((الأنوق هي الرِّحْمُ، ويقال في المثل: (هو أبعد من بيض الأنوق)^(١) لأنها تبيض في مواضع لا يصل إليها الناس))

أما الخوارزمي فيقول: ((الأنوق هي الرِّحْمُ سُمِّيت لِتَأْتِقْهَا فِي أَمْرِهَا وَذَلِكَ لِأَنَّهَا تُحَصِّنُ بَيْضَهَا وَتُجْمِي فَرْخَهَا، وَتَتَأَلَّفُ وَلَدَهَا، وَلَا تُمَكِّنُ مِنْهَا غَيْرَ زَوْجِهَا، وَفِي امْتَالِهِمْ (أَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الْأُنُوقِ))^(٢)

وقيل الأنوق طائر يشبه الرِّحْمَةَ فِي الْقَدِّ، وَالصَّلَعِ، وَصَفْرَةِ الْمَقَارِ، وَيَخَالِفُهَا أَنَّهَا سَوْدَاءُ طَوِيلَةِ الْمَقَارِ.^(٣)

ويقول الميداني في معنى هذا المثل: ((أما الأنوق فهو اسم للرِّحْمَةِ، وهي أبعد الطير وكراً، فَضَرَبَتْ الْعَرَبُ بِهِ الْمَثْلَ فِي تَأْكِيدِ بَعْدِ الشَّيْءِ وَمَا لَا يُنَالُ))^(٤)

أما صاحب جمهرة الأمثال فيقول: ((الأنوق ذكر الرِّحْمَةِ، وَالْعَرَبُ تُؤَنِّثُهُ وَإِنْ كُنِيَ اسْمًا لِلذَّكَرِ، وَهُوَ مِنْ أَبْعَدِ الطَّيْرِ وَكَرَأٍ فِي الْهَوَاءِ. يَقُولُ: أَعَقَقْتُ الْفَرَسَ، إِذَا حَمَلَتْ وَهِيَ غَفُوقٌ، فَهُوَ صِفَةٌ لِلْأُنْثَى. الْأَبْلَقُ صِفَةٌ لِلذَّكَرِ. يَقُولُ: إِنَّهُ يَطْلُبُ الذَّكَرَ الْحَامِلَ، وَهَذَا لَا يَكُونُ))^(٥)

وقيل يضرب هذا المثل للذي يسأل الهين فلا يعطى، فيسأل ما هو أصعب منه.^(٦)

٣- ومنه أيضاً في تفسير الشراح للفقطة (أوشال) الواردة في قول أبي العلاء:

يَقُولُ إِذَا مَارَمَلَةٌ أَلْقَتْ بِهَا جَهْوَلٌ أَنْاسٍ جَاءَ رَمْلٌ بِلَوْشَلٍ

يفسر التبريزي لفظة الأوشال، يقول: ((أوشال جمع وشل، وهو الماء القليل)) أما الخوارزمي فيقول: ((الأوشال جمع وشل، وهو ما يتخبط من الصخرة قليلاً قليلاً. وشل الماء يشل. وفي امثالهم هل بالرمل أوشل. يضرب للتبخيل الذي لا خير عنده، كما لا وشل بالرمل))^(٨)

(١) ينظر: المستقصى من أمثال العرب: ٢ / ٣١٣ .

(٢) مجمع الأمثال: ١ / ١١٥ .

(٣) شروح سقط الزند: ٣ / ٥٢٢ .

(٤) ينظر: لسان العرب: ١٠ / ١١ .

(٥) مجمع الأمثال: ١ / ١١٥ .

(٦) جمهرة الأمثال: ١ / ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٧) ينظر: تاج العروس: ٢٥ / ٢٤، مادة: (أنق) .

(٨) شروح سقط الزند: ٤ / ١٨٢٤ .

وقيل يُضرب هذا المثل للأحمق الذي لا يعرف وجوه الأمور، وذلك أن الوُشَل لا يكون في الرَّمَل، وإنما هو ماء قليل يُخَير من الجبل. ويُقال هذا المثل الذي لا يوثق به^(١)

فهذه صفة مذمومة تطلق على الانسان الذي يمسك يده في الانفاق، فلا يتجرا على الانفاق ولو على نفسه، وقد ذم الله هذه الطائفة من الناس، حيث يقول: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيمُ﴾^(٢).

٤- ومنه تفسير الشراح للفظه (المِرْدَاة) الواردة في قول ابي العلاء: كلُّ نواحيدي رُبَيْتٍ بِصَخْرٍ ولم يَمُرَّرْ بِهِنَّ مَيَّوَى كَلَامِي

يقول التبريزي: ((رُبَيْتٌ أي كُسِرَتْ وَرُمِيَتْ، والمِرْدَاةُ الصخرة التي يكسر بها ومنه قولهم ((فلانٌ مِرْدَى حُرُوبٍ)) أي تكسر به الحروب، ويقال في المثل: ((كلُّ ضَبٍّ معه مِرْدَاةٍ)) أي يكون عند بيته صخرة يجوز أن يهدم بها بيته، والذي يفهم من أن تلك المِرْدَاة يجعلها علماً له يهتدي به الى بيته؛ لأنه موصوفٌ بسوء الهداية))^(٣) اما البطليوسي، فيقول: ((وَرُبَيْتٌ رُمِيَتْ، يُقال: رُبَيْتٌ بالحجر، اذا رُمِيَتْ به، ويُقال للحجر الذي يرمى به المِرْدَاة، والمِرْدَى. وإنما قال هذا؛ لأن الكلام الصَّعب يُشَبَّه بالحجارة، وكذلك الكلام الذي فيه جزالة، وقوة أسرى، ولذلك سُمِّيَتْ المهاجاة مِرْاجِمَةً، سُمِّيَتْ بالمِرْاجِمَةِ بالحجارة))^(٤)

وفي كتب اللغة نجد أن معنى (رِدَاةٌ بِحَجَرٍ رَمَاهُ بِهِ) والمِرْدَاةُ: هو الحجر الذي لا يكاد الرجل الضابط يرفعه بينديه^(٥).

والرَدَى الهلاك، ردي بالكسر، يَرْدِي رَدَى هلك، والرَدَى الهالك، واردة الله وارديته أي أهلكته. ومنه قولهم في المثل: ((عند جحر كلِّ ضَبٍّ مِرْدَاةٌ، يُضرب مثلاً للشيء العتيق ليس دونه شيء، وذلك أن الضَبَّ لَيْسَ يَنْدُلُ على جحره إذا خَرَجَ مِنْهُ فَعَادَ اليه إلا بِحَجَرٍ يَجْعَلُهُ علامة لجحره فيهتدي بها اليه، وتُشَبَّه بها الناقة في الصلابة فيقال مِرْدَاةٌ، ومنه قيل للرجل الشجاع أنه لَمِرْدَى حُرُوبٍ وهم مَرَايِدِي الحروب^(٦). وإذا بحثنا عن هذا المثل الذي ذكره الشراح واهل اللغة نجد أن اصحاب كتب الامثال اختلفوا في

(١) ينظر: مجمع الأمثال: ٣٨٢/٢، المستقصى: ٣٩٠/٢.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٤.

(٣) شروح سقط الزند: ١٨١٤/٤.

(٤) المصدر نفسه: ١٨١٤/٤.

(٥) ينظر: تاج العروس: ٢٤٦/٤، مادة: (ردا).

(٦) ينظر: لسان العرب: ٣١٨/١٤ - ٣١٩.

معنى هذا المثل. فالواحد يقول: ((أن معنى المثل لا تأمن الحدثن والغير فلن الآفات مُعَدَّة مع كلِّ أحد))^(١).

أما العسكري فيشير إلى أن معنى المثل هو: أنك لا تغترُّ بالسلامة فإنَّ الأحداث والآفات مُعَدَّة.^(٢)

٥- ومن ذلك أيضاً تفسير الشراح للفظ (الرَّشْفُ) الواردة في قول أبي العلاء: قَتَى عَشْفَهُ الْبَابِلِيَّةُ حَقْبَةً فلم يشفها منه برشْف ولا لَمْ

قال التبريزي: ((البابلية الحُمرة المنسوبة إلى بابل. أي كانت تؤثر أن يشربها هذا المذكور فلم يشفها بالرَّشْف، الذي هو شَرْبٌ، ولا باللَّثْم الذي هو أَقْلٌ من الرَّشْف؛ لأنَّ الرَّشْفَ يروي العطش، واللَّثْمُ إذا هو تَقْبِيلٌ، ومن امثالهم: ((العَبُّ أَرْوَى، والرَّشْفُ أَشْرَبُ))^(٣) ومعنى لفظ (الرَّشْف) يُقال: رَشَفْتُ الْمَاءَ أَرَشِفُهُ وَأَرَشِفُهُ رَشْفًا، إذا اسْتَقْصَيْتُ شَرْبَهُ مِنَ الْإِنَاءِ حَتَّى لَا تَدَّعَ فِيهِ شَيْئًا، وَالْمَاءُ مَرْشُوفٌ وَمُرْتَشَفٌ، وَكَذَلِكَ رَشْفُ الرِّيقِ؛ يُقال: رَشَفَ الرَّجُلُ رِيقَ الْمَرْأَةِ رَشْفًا.^(٤)

وقال الميداني في معنى هذا المثل: ((يُضْرَبُ لِمَنْ يَقَعُ فِي غَنِيمَةٍ فَيُؤَمَّرَ بِالْمَبَادِرَةِ وَالْإِقْطَاعِ لِمَا قَدَّرَ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ مِنْ يُنَازِعُهُ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَنَّ الْأَقْصَادَ فِي الْمَعِيشَةِ أَبْلَغُ وَأَدْوَمُ مِنَ الْإِمْرَافِ مِنْهَا))^(٥).

وقال العسكري: ((معناه أنَّ الرفق مع طلب الحاجة أجلب لها وأسهل للوصول إليها))^(٦) هذه أشهر النماذج التي وردت في شروح سقط الزند من أمثال العرب.

(١) الوسيط في الأمثال: ١٤٥/، ينظر: مجمع الأمثال: ١٣٣/٢.
(٢) ينظر: جمهرة الأمثال: ١٥٧/٢، المستقصى في أمثال العرب: ٢٢٧/٢ - ٢٢٨، أمثال الأمثال، لأبي المحاسن محمد بن علي العبدري الشيباني: ٥٢٣/٢.
(٣) شروح سقط الزند: ٩٥٦/٣.
(٤) ينظر: جمهرة اللغة: ٧٢٩/٢.
(٥) مجمع الأمثال: ٢٦٦/١.

